الداء المضني ، وما قربها ؟ هو الشفاء والبرء من كل داء . ولا سبيل إلى هذه الدلالة إلا عن طريق خاصة نحوية هي (الحذف) ، والحذف هنا « حذف المفعول »[1] ، وقد أعطى عطاءً فنيا في هذا الأداء الشعري لا يمكن أن يتحقق في مستوى آخر من الأداء . وقد يكون (للذكر) عطاء في الشعر يختص به ويصبح من طريقته ، لا يتوفر له إذا استخدم في جنس آخر ، فعندما يقول الشاعر :

ولَوْ شئْتُ أنْ أبْكي دَمًا لَبكَيْتُهُ عَلَيْهِ ولَكِنْ ساحَةُ الصَّبْرِ أوْسَعُ

كان القياس أن يقول : (لو شئت بكيت دمًا) ومثل هذا الأداء النثري لا يتحقق فيه ما تحقَّق من قول الشاعر ، حيث كان بدعًا عجيبًا أن يشاء الإنسان أن يبكيَ دمًا . فلما كان كذلك ، كان الأولى أن يصرح بقوله (لبكيته) ليقرره في نفس متلقّيه ويؤنسه به ، فالطريقة الأولى هي التي توجب الحسن في الأداء الشعري وتخصّه به[2] .

فالحذف والذكر ، والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، كلها إمكانات يستعين بها الشاعر في إطار يختصُّ بالشعر ، ويكاد ينغلق عليه ، وهي إذا استعملت في ألوان أخرى من الأداء الفني ، تتميز بعطاء آخر له تميُّزه وتفرُّده .

ولم يقف الأمر بالرجل عند هذا الحد ، بل يكاد يقرِّر أن لكل شاعر خصوصية نحوية لها إمكاناتها التي تميِّزها ، وتجعل لشعره طبيعة دلالية خاصة تميزه من غيره من الشعراء ، حتى ولو كان هناك تشابهٌ في المعاني وتقارب في الأفكار .

(١) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ١٨٣ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .